قضية الأمة الشاهدة على الأعمال في القرآن الكريم

م. د لمياء مهدي سعيد الشمرتي

كلية القانون - جامعة الكوفة

limiya.M.alshamari@yahoo.com

The Case of the Witnessing Nation Regarding Deeds in the Holy Qur'an

Dr. Lamia Mahdi Saeed Al-Shammarti, Assistant Lecturer
College of Law – University of Kufa, Iraq

ملخص البحث

تعرضت العديد من النصوص القرآنية إلى قضية الشهادة على الأعمال في يوم القيامة، شهدت التفاسير جدلا بخصوص الأمة الشاهدة، وحسم مفسرو الإمامية إلى جانب بعض مفسري مدرسة الصحابة بأن المراد بها تلك الجماعة المعصومة والمنزهة عن الخطأ، والتي يسعها العلم بحقيقة الأعمال وباطنها دون الاقتصار على ظاهرها، وهي كرامة اختص بها النبي وأهل بيته (عليهم السلام)، في حين في الأمة من لا تقبل شهادته في الدنيا، ناهيك عن اقتصار علمه على ظواهر الأشياء؛ الأمر الذي يعكس عدم أهليته لتحمل الشهادة في الدنيا والإدلاء بها في عالم الآخرة.

الكلمات المفتاحية: الشهادة، الأمة، الأعمال، القيامة.

Abstract

Many Qur'anic texts have dealt with the issue of bearing witness to deeds on the Day of Resurrection، and the interpretations have witnessed controversy regarding the witnessing nation، and the Imami interpreters، along with some interpreters of the Companions' school، have decided that what is meant by the witnessing nation is that group that is infallible and free from error، and which can know the truth **of** deeds and their hidden meanings without being limited to their apparent appearance، and it is a dignity that was reserved for the Prophet and his family، peace be upon them، while in the nation there are those whose testimony in the matter is not accepted.

Keyword: Witness, Nation, Actions.

مقدّمة

تعرضت العديد من الآيات القرآنية إلى حقيقة من الحقائق على صعيد الدنيا والآخرة والمتمثلة بالشهادة والاشهاد على حقيقة أعمال الناس في

مشهد القيامة من دون الاقتصار على ظواهر تلك الأعمال.

ويندرج ذلك في إطار تشديد الرقابة الذاتية على هذا الإنسان إذا ما علم بأن أعماله وأقواله محصاة لدى الله والملائكة والجوارح، فضلا عن أنس آخرين اختصّهم بتلك الشهادة بهدف دفعه إلى الإتيان بمزيد من الأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة وفقا لسعة مغفرة الله ورحمته.

أهمّية البحث

يسعى البحث لتسليط الضوء على حقيقة من الحقائق القرآنية متجسّدة بالشاهد الذي يجتبيه الله تبارك وتعالى لتحمل أمانة الشهادة الإدلاء بها على الناس يوم القيامة الذي تبلى فيه السرائر ويكشف فيه عن حقيقة الأعمال.

أهداف البحث

الوقوف على مفهوم الشهادة والأمة على ضوء ما صرحت به الآيات القرآنية لا سيّما التي قصد بها الشهادة المعنوية دون الحسية على الأعمال، والخصائص التي ينبغي توفرها في هذه الأمة بما يجعلها مؤهلة للقيام بتلك المهمة. مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في المراد القرآني بهذه الأمة الشاهدة على الأعمال، فهل المقصود بها الأمة الاسلامية بجميع أفرادها على الرغم من وجود جماعة غير قليلة فيها من العتاة المردة والفراعنة الجبابرة، أم إن المراد بها جماعة معينة ضمن هذه الأمة، كون الشهادة في الأمة لا يعني جميع أفرادها على غرار تفضيل بني اسرائيل الذي لا يفيد تفضيل كل فرد فيهم على العالمين، ومن الواضح أن الشريعة الاسلامية الغراء رفضت أو قدحت في شهادة بعض الافراد على قليل من حطام الدنيا فكيف تستقيم شهادتهم على أعمال الناس في الآخرة.

فرضية البحث

إن استنطاق القرآن عبر منهج تفسير القرآن بالقرآن، إلى جانب طائفة من الروايات التفسيرية يشير إلى أنّ الأمة التي ستتولى مسؤولية الشهادة على الأعمال يوم القيامة هي جماعة مصطفاة من الله معصومة منزهة عن الخطأ، مزودة بالقدرة على الوقوف على باطن وحقيقة الأعمال دون الاكتفاء بظاهرها.

منهجية البحث

تناول عنوان البحث قضية شهادة الأمة على الأعمال يوم القيامة من خلال المنهج الوصفي المتمثل بعرض الآيات القرآنية الواردة بهذا الخصوص، إلى جانب المنهج التحليلي.

هيكلية البحث

انتظم البحث بغض النظر عن المقدمة والخاتمة في ثلاثة محاور، هي كما يأتي:

المحور الأول: مفهوم الأمة في القرآن الكريم.

المحور الثاني: الشهادة في الرؤية القرآنية.

المحور الثالث: الأمة الشاهدة وخصائصها في القرآن الكريم.

سنسلط الضوء على عنوان البحث الموسوم جدلية الشهادة على الأعمال في القرآن الكريم من خلال ثلاثة محاور نتعرف فيها على الرؤية القرآنية لمفهوم الأمة والشهادة ومن ثم الأمة الشاهدة، وكما يأتي:

المحور الأول: مفهوم الأمة في القرآن

وردت مفردة الأمة في العديد من الآيات القرآنية لتفيد عدة معان أدت الى لبس لدى أغلب المفسرين في إطار تعاطيهم مع الآية القرآنية المباركة التي تعرضت الى الأمة الشاهدة على الأعمال يوم القيامة، وكذلك سائر الآيات التي وردت فيها لفظة الأمة، غير أنهم أجمعوا على حصر تلك المعاني في ما يأتي:

1- تعني الوقت والبرهة من الزمن، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[i] إذ ذكر المفسرون انها تعني في هذه الآية الكريمة الأجل والحين أي برهة من الزمن[ii].

2- تعني الدين والملة، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[iii]، أي قالوا "إنا وجدنا آباءنا على طريقة ومذهب ودين، وإنا على آثار آبائنا فيما عليه متبعون لهم، ومقتدون بهم"[iv].

3- تعني جماعة من الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[v]، وبهذا المعنى وردت في كثير من الآيات القرآنية من قبيل" قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾[vi] اذ تفيد الأمة في هذه الآيات كما عليه أغلب مفسري الفريقين معنى الجماعة[vii]

4- تعني الجماعة المتفقة على دين واحد كما وردت في طائفة من الآيات الشريفة، ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[viii]، أي على الدين الاسلامي "ليكون دين البشرية

كلها؛ ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعا؛ ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي؛ ولتقيم منهج الله لحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها. المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها؛ والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادي، ونظامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفردي والجماعي.."[ix]

5- تعني الأمة الامام الذي يعلم الخير ويهدي الى الطريق الصحيح[x] كما جاء في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[xi] والمراد بالأمة: الامام الذي يقتدى به أو الرجل الجامع للخير[xii] أو المؤمن وحده والناس كلهم كفار[xiii] وقانتا لله: اي مطيعا لله[xiv] وحنيفا اي موحدا بريئا من الشرك[xv].

هذه هي أبرز المعاني التي ذكرت للأمة والتي أجمع عليها عأمة المفسرين من الفريقين، مع انهم اختلوا في المصداق المراد بها عند وصفها بالوسط، على الرغم من اتفاقهم على معناها الظاهري.

وهنا لا بد أن نشير الى حديث القرآن الكريم عن الأمة الوسط، اذ ذهب عأمة المفسرين من الفريقين الى أن المراد بالوسط الخير وكذلك العدل، فالخير والعدل متقاربان[xvi].

قال أحد علماء الإمامية بهذا الخصوص "إنما انزل الله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا يعني عدلا، والمراد من العدل هنا ليس العدالة الفقهية، وإنما المراد منه العدالة الكلامية، يعني التي نحن نصطلح عليها بالعصمة، لان العدالة الفقهية قد يقع الإنسان فيها في خطا، في اشتباه في نسيان"[xvii] ويشترط مفسرو الإمامية كما سياتي في المحور القادم من البحث في الشاهد انه لا يجوز عليه الخطأ، ويشاركهم في ذلك الشرط بعض كبار مفسري القرآن من مدرسة الصحابة.

ما تجدر الاشارة إليه أنه وعلى الرغم من صحة كل هذه التعريفات التي وردت بخصوص الأمة والتي تبدو متقاربة مع بعضها البعض الآخر مع شيء طفيف من الاختلاف، غير أن الباحثة تميل إلى بعض التعريفات التي ساقها جملة من مفسري الفريقين المعاصرين، والتي من شأنها كشف النقاب عن حقيقة المراد بها والذي أهَّلها لأن تكون شاهدة على الأعمال في يوم القيامة، والذي يفهم أيضا فضلا عن ذلك من خلال استنطاق بعض الآيات القرآنية الشريفة التي وردت فيها لفظة الأمة وتعرضت لبعض صفاتها، سيما تلك التي وصفتها بالخيرية والآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر.

فقد وردت لفظة الأمة في الآية الشريفة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[xviii] وهي ذات الأمة التي ورد التعبير عنها بالوسط في الآية المذكورة.

وعلى ضوء المعنى المذكور للأمة بالإمام والهادي إلى الخير والطريق الصحيح فان ما يفهم من هذه الآية " إن الدعوة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائية، إذ لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكوران بعد حصول الغرض فلو فرضت الأمة بأجمعهم داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف، فالأمر قائم بالبعض على أي حال، والخطاب إن كان للبعض فهو ذاك وإن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض، وبعبارة أخرى المسؤول بها الكل والمثاب بها البعض ولذلك عقبه بقوله وأولئك هم المفلحون، فالظاهر أن من تبعيضية وهو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين ولا يصار إلى غيره إلا بدليل"[xix].

ومن هنا تعتقد الباحثة ان المصداق الاتم لهذه الأمة بالاستناد إلى ما سبق هم أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، الذين ورد النص على ولايتهم الامر من بعده، والذين يفترض الإمامية عصمتهم وتنزيههم عن الخطأ والنسيان، يؤيد ذلك قوله تبارك وتعالى مباشرة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ﴾.[xx]

اذ يقول صاحب تفسير الميزان "مع أن ظهور الاختلاف في العقائد والآراء ضروري بين الافراد لاختلاف الأفهام لكن كما أن ظهور هذا الاختلاف ضروري كذلك دفع الاجتماع لذلك ورده المختلفين إلى ساحة الاتحاد أيضا ضروري فرفع الاختلاف ممكن مقدور بالواسطة وإعراض الأمة عن ذلك بغي منهم وإلقاء لأنفسهم في تهلكة الاختلاف.

ويضيف بأن القرآن أكد على الدعوة إلى الاتحاد وبالغ في النهي عن الاختلاف وليس ذلك إلا لما كان يتفرس من أمر هذه الأمة أنهم سيختلفون كالذين من قبله من، بل يزيدون عليهم في ذلك وقد تقدم مرارا أن من دأب القرآن أنه إذا بالغ في التحذير عن شيء والنهي عن اقترافه كان ذلك آية وقوعه وارتكابه، وهذا أمر أخبر به النبي: (صلّى

الله عليه وآله وسلّم) أيضا كما أخبر به القرآن، وإن الاختلاف سيدب في أمته ثم يظهر في صورة الفرق المتنوعة، وإن أمته ستختلف كما اختلفت اليهود والنصارى من قبل"[xxi].

يضاف إلى ما تقدم من حصر معنى الأمة في تلك الثلة من أهل البيت: (عليهم السلام)، الآية القرآنية المباركة التي وردت بصيغة دعاء على لسان خليل الله النبي ابراهيم (عليه السلام): رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ[xxii] اذ المراد بحسب المفسرين: التوحيد والاخلاص والتنزه عن الشرك[xxiii].

فليس الاسلام الذي سأله لذريته الا حقيقة الاسلام، وفي قوله تعالى: أمة مسلمة لك، إشارة إلى ذلك، فلو كان المراد مجرد صدق اسم الاسلام على الذرية لقيل: أمة مسلمة، "فمن البديهي أن الاسلام على ما تداول بيننا من لفظه، ويتبادر إلى أذهاننا من معناه أول مراتب العبودية، وبه يمتاز المنتحل من غيره، وهو الاخذ بظاهر الاعتقادات والأعمال الدينية أعم من الايمان والنفاق، وإبراهيم (عليه السلام) - وهو النبي الرسول أحد الخمسة أولي العزم، صاحب الملة الحنيفية - أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله إلى هذا الحين، وكذا ابنه إسماعيل رسول الله وذبيحه، أو يكونا قد نالاه ولكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك وأرادا البقاء على ذلك، وهما في ما هما فيه من القربى والزلفى، والمقام مقام الدعوة عند بناء البيت المحرم، وهما أعلم بمن يسألانه، وأنه من هو، وما شأنه، "[xxiv].

وهكذا يبدو ان الاسلام المسؤول غير ما هو المتداول المتبادر عندنا منه، فإن الاسلام مراتب والدليل على أنه ذو مراتب قوله تعالى: ﴿**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت**﴾، حيث يأمرهم إبراهيم بالإسلام وقد كان مسلما، فالمراد بهذا الاسلام المطلوب غير ما كان عنده من الاسلام الموجود، ولهذا نظائر في القرآن.

ونخلص مما تقدم أن المعنى الابرز للأمة يتمثل بالإمام والداعي الى الخير، وان ضم تعريف الوسط الى الأمة، الى جانب الآية المباركة التي تعرضت للأمة الداعية للخير الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر يكشف عن أن المراد بهذه الأمة التي تتولى الشهادة على الأعمال يوم القيامة ربما يمكن حصرها في أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، الامر الذي أيده صاحب التفسير الكبير كما سيتبين لنا في المحور القادم.

المحور الثاني: الشهادة في الرؤية القرآنية

تعرضت العديد من الآيات القرآنية الى لفظة الشهادة والشهيد والتي تكاد تشترك في معنى أساسي يتمحور حول الحضور، ومنها الآية الشريفة: ﴿أَمْ

كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي..﴾، [xxv] أي انكم لم تحضروا ذلك[xxvi].

يضاف الى ما تقدم سائر الآيات التي تفيد معنى الحضور من قبيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [xxvii]، والآية المباركة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، [xxviii] وهكذا سائر الآيات القرآنية.

وثمة طائفة من الآيات المباركة تعرضت لمفردة الشهادة التي تفيد الشهادة على الأعمال في يوم القيامة كما ذهب الى ذلك أغلب المفسرين، ومنها الآية الشريفة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾. [xxix]

يقول أحد المفسرين المعاصرين " فالشهادة المذكورة في الآية، حقيقة من الحقائق القرآنية تكرر ذكرها في كلامه سبحانه، واللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [xxx]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [xxxi]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، [xxxii] والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع على اطلاقها هو الشهادة على اعمال الأمم، وعلى تبليغ الرسل أيضا، كما يومي إليه قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [xxxiii]، وهذه الشهادة وإن كانت في الآخرة يوم القيمة، لكن تحملها في الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى - حكاية عن عيسى (عليه السلام): ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [xxxiv] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. [xxxv]

ومن الواضح أن هذه الحواس العادية التي فينا، والقوى المتعلقة بها منا لا تتحمل إلا صور الافعال والأعمال فقط، وذلك التحمل أيضا، إنما يكون في شيء يكون موجودا حاضرا عند الحس لا معدوما ولا غائبا عنه، وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والايمان والفوز والخسران، وبالجملة كل خفي عن الحس ومستبطن عند الانسان وهي التي تكسب القلوب، وعليه يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر، فهي مما ليس في وسع الانسان إحصائها والاحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلا عن الغائبين إلا رجل يتولى الله أمره ويكشف ذلك له بيده، ويمكن

أن يستفاد ذلك مما ورد في القرآن في قوله تعالى: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق"[xxxvi]

وعودا على ما سبق من القول وتعقيبا على هذا التفسير فان اشتراك الشهادة في معنى الحضور صحيح، غير أن مراتب ومصاديق هذا الحضور استنادا للعديد من الآيات القرآنية مختلفة، فقد يكون الحضور حسيا كقوله تعالى أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت.

وقد يكون الحضور حضورًا ذكريًا علميًا، كما في الشاهد الذي يشهد واقعة معينة، ثم يتحملها في عقله، ثم يدلي بها أمام القضاء، فإن الشهادة هنا بمعنى الحضور، إلا أن الحضور هنا حضور ذهني، حضور علمي، الشهادة بمعنى واحد وهو الحضور، مصاديق الحضور، أمثلة الحضور، تجليات الحضور، تختلف من مقام إلى آخر، ومن موقع إلى آخر[xxxvii].

وهنالك حضورا آخر هو الحضور المعنوي الذي نتلمسه في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾،[xxxviii]

فالوسط تعني الخير والعدل، والأمة الوسط هي ذات الأمة الموصوفة بانها خير أمة اخرجت للناس، والتي يتجلى فيها الخير والعدل وليس مطلق الأمة.

فلو تأملنا قوله تباك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾،[xxxix] لنقف على طبيعة الحضور، حيث تصف المطيع لله وللرسول بانه مع الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فهو معهم ورفيق لهم، ولكنه ليس منهم، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم، والذين أنعم الله عليهم هم أصحاب الصراط المستقيم، وأصحاب الصراط المستقيم يختلفون عن المطيع، المطيع لله ولرسوله استقامته اكتسابية عرضية، أما أصحاب الصراط المستقيم فاستقامتهم ذاتية طبعية، يؤيد ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿. . .أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[xl]، فهناك من له هداية جبلية، وهو المستقيم بطبعه، وهناك من هدايته مكتسبة.

أي أن الهداية إلى الحق بمعنى الايصال إليه انما هي شأن من يهتدى بنفسه، أي لا واسطة بينه وبين الله سبحانه في أمر الهداية، اما من بادئ أمره أو بعناية خاصة من الله سبحانه كالأنبياء والأوصياء من الأئمة، وأما الهداية بمعنى اراءة الطريق ووصف السبيل فلا يختص به تعالى ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.[xli]

وهنا لا بد من الاشارة الى أن الشهيد على الأعمال يوم القيامة ينبغي أن يكون معصوما منزها عن الخطأ والنسيان، وهذا ما ذهب اليه صاحب التفسير الكبير في تفسيره للآية الشريفة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾،[xlii] اذ يقول" فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وأن يكون غير جائز الخطأ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتد ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل، فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم"[xliii]

وهذا ما أكده مفسرو الإمامية بالقول: "على هذا فمن الواجب أن يكون هذا الشهيد، الذي يشهد على أعمال الخلائق، أن يكون ذا عصمة إلهية يمتنع عليه الكذب والجزاف، والا لو أمكن منه الكذب ولو اشتباها ولو خطئا ولو سهوا لا عمدا، وان يكون عالما بحقائق الأعمال، لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة، بل بحقيقة ما انعقدت عليه في القلوب، وان يستوي عنده الحاضر والغائب من الناس، لا انه إذا حضر عند احد يشهد، إذا لم يحضر، وهذا يكشف لنا من أن الجميع حاضر عند المعصوم، وعند الشاهد"[xliv].

ويفهم من ذلك ضرورة كون تلك الشهادة عن معاينة كما يبدو من لفظة الشهيد وكونه من أنفسهم غير مستندة الى حجة عقلية أو دليل سمعي، ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.[xlv]

وعلى هذا الاساس تتفق الآيتان مضمونا، أي آية يوم نبعث من كل أمة شهيدا وآية الأمة الوسط التي يتبين من ظاهرها "ان بين النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وبين الناس الذين هم عأمة من بعث إليهم من زمانه إلى يوم القيامة شهداء يشهدون على أعمالهم وان الرسول انما هو شهيد على هؤلاء الشهداء دون سائر الناس إلا بواسطتهم، ولا ينبغي ان يتوهم ان الأمة هم المؤمنون وغيرهم الناس وهم خارجون من الأمة، فإن ظاهر الآية السابقة في السورة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾،[xlvi] إن الكفار من الأمة المشهود عليهم.

ولازم ذلك أن يكون المراد بالأمة في الآية المبحوث عنها ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم جماعة الناس من أهل عصر واحد يشهد أعمالهم شهيد واحد ويكون حينئذ الأمة التي بعث إليها النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسلم منقسمة إلى أمم كثيرة.

ويكون المراد بالشهيد الانسان المبعوث بالعصمة والمشاهدة كما تقدم ويؤيده قوله من أنفسهم إذ لولا المشاهدة لم يكن لكونه من أنفسهم وقع ولا لتعدد الشهداء بتعدد الأمم وجه فلكل قوم شهيد من أنفسهم سواء كان نبيا لهم أو غير نبيهم فلا ملازمة

كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [xlvii].

ويكون المراد بهؤلاء في قوله وجئنا بك شهيدا على هؤلاء الشهداء دون عامة الناس فالشهداء شهداء على الناس والنبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسلم شهيد على الشهداء وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهو (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسلم شهيد على مقامهم لا على أعمالهم ولذلك لم يكن من الواجب ان يعاصرهم ويتحد بهم زمانا[xlviii].

ونخلص مما تقدم أن ثمة شهادة ذكرت في القرآن الكريم تفيد معنى الحضور المعنوي الذي يتصل بالأعمال، والذي لا يمكن الا ان تختص به جماعة معينة موسومة بالخير والوسطية والهداية الفطرية، وينبغي أن تكون معصومة منزهة عن الخطأ والنسيان ومطلعة على باطن وحقيقة الأعمال، وهذا ما سيبدو جليا في المحور الثالث من هذا البحث.

المحور الثالث: الأمة الشاهدة وخصائصها في القرآن الكريم

تعرفنا في المحورين السابقين على كل من مفهوم الأمة والشهادة وفق الرؤية القرآنية بغية الوقوف من خلالهما على حقيقة الأمة الشهادة على الأعمال في يوم القيامة، فقد ذهب أغلب مفسري مدرسة الصحابة[xlix] الى أن المراد بها الأمة الاسلامية، وجاء ذلك في إطار تفسيرهم للآيات القرآنية التي تعرضت للشهادة على الأعمال، في حين ذهب أغلب مفسري مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)[l] الى أنها مختصة بأهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذين تظافرت النصوص الدينية القرآنية والروائية في إمامتهم.

استدلّ مفسرو مدرسة أهل البيت بالاستناد الى استنطاق الكتاب الكريم عبر منهج تفسير القرآن بالقرآن وضم طائفة من الروايات التفسيرية التي تعرضت لبعض الخصائص والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الشاهد ليكون مؤهلا لحمل الشهادة والإدلاء بها يوم القيامة؛ فان كل ذلك حملهم على حصر تلكم الشهادة البشرية على الأعمال يوم القيامة بأئمة الهدى (عليهم السلام) بصفتهم الامتداد الطبيعي للنبي الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وعلى هذا الاساس قال أحد المفسرين[li] "أن هذه الحواس العادية التي فينا، والقوى المتعلقة بها منا لا تتحمل إلا صور الافعال والأعمال فقط، وذلك التحمل أيضا، إنما يكون في شيء يكون موجودا حاضرا عند الحس لا معدوما ولا غائبا عنه وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران، وبالجملة كل خفي عن الحس ومستبطن عند الانسان - وهي التي تكسب القلوب، وعليه يدور حساب رب العالمين يوم تبلى

السرائر فهي مما ليس في وسع الانسان إحصائها والاحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلا عن الغائبين".

وتأسيسا على ذلك "يجب أن يكون الشهود ممّن يستوي لديهم الغيب والحضور، والخفيّ والظاهر، والقريب والبعيد، والظاهر والباطن ليمكنهم تحمّل الشهادة وأداءها في المرحلة اللاحقة. أي أن يكونوا ممّن لهم اطّلاع على الضمائر والسرائر، وعلى الاسرار والافهام، مثل اطّلاع الإنسان على نفسه. ويجب أن يكون أُولئك الشهداء المقتدرون الذين يشهدون يوم القيامة مطّلعين على أعمال كلّ فرد من أفراد الأمة الذين يريدون الشهادة عليه، أكثر من اطّلاع ذلك الفرد على نفسه.

أي "أنّ الذين يمكنهم الشهادة هم الذين تخطّوا مضيق الجهات وعالم الطبع والنزعة المادّيّة وحبّ الدنيا، والذين تجاوزوا الأمور التي تحجب النفس وتحصر مدركاتها بالأمور التي تربط الإنسان بالخارج عن طريق الحواسّ الظاهريّة، حيث لا تنحصر حواسّهم بالحواسّ الخمس الظاهرة، فقد صارت حاسّتهم السادسة يقظة فعّالة، وتفتّحت بصائرهم وأصبحت أرواحهم ذات سيطرة وهيمنة. وبعبارة أُخري فإنّهم يمثّلون موجودات تعيش في هذا العالم أو ارتحلت عنه، إلاّ أ نّها تمتلك إحاطة علميّة بجميع الموجودات؛ ولو لم تكن كذلك لتعذّرت عليها الشهادة بهذه الكيفيّة. وينبغي أن يكون الامر كذلك، لانّ الافراد الذين يشهدون يوم القيامة، إنّما يشهدون بإذن الله تعالي، إذ لاحقّ لاحد في الكلام ذلك اليوم إلاّ بإذن الحقّ تعالي وتقدّس".[lii]

لا يتسنى ذلك الا لرجل يتولى الله أمره ويكشف ذلك له بيده، ويمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[liii]. فإن عيسى داخل في المستثنى في هذه الآية قطعا - وقد شهد الله تعالى في حقه بأنه من الشهداء - كما مر في الآيتين السابقتين، فهو شهيد بالحق وعالم بالحقيقة.

وعليه لا تمتلك الأمة بأجمعها مثل هذ الخاصية التي تؤهلها لأداء الشهادة على الناس يوم القيامة "فمن المعلوم أن هذه الكرامة ليست تنالها جميع الأمة، إذ ليست إلا كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منهم، وأما من دونهم من المتوسطين في السعادة، والعدول من أهل الايمان فليس لهم ذلك، فضلا عن الاجلاف الجافية، والفراعنة الطاغية من الأمة، وان أقل ما يتصف به الشهداء - وهم شهداء الأعمال - أنهم تحت ولاية الله ونعمته وأصحاب الصراط المستقيم.

فالمراد بكون الأمة شهيدة أن هذه الشهادة فيهم، كما أن المراد بكون بني إسرائيل فضلوا على العالمين، أن هذه الفضيلة فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعض فيه ومنه، فكون الأمة شهيدة هو أن فيهم من يشهد على الناس ويشهد الرسول عليهم"[liv].

ومن هنا فمن المسلّم أنّ أُولئك الشهداء الذين يريدون الشهادة، إنّما يشهدون بإذن الله تعالي، وهذا الإذن ليس إذناً شكليّاً. بل ينبغي ـ إضافة إلى الشرف الحاصل للمأذون بالكلام بإذن الله سبحانه ـ أن يكون له قدرة على الكلام بصورة صحيحة في عالم التكوين والحقيقة، وينبغي له ـ إذ يريد الشهادة ـ أن يكون قد سبق له تحمّل الشهادة. أمّا من لم يتحمّل الشهادة ولم يتحمّل أعمال العباد بالكيفيّة التي ذُكرت بجميع وقائعها وخصوصيّاتها وسرائرها وبواطنها، فكيف سيمكنه أداء الشهادة؟ لانّ الشهادة في ذلك العالم هي الشهادة بالحقّ. يؤيد ذلك طائفة من الروايات التفسيرية التي وردت بهذا الخصوص ومنها، وفي المناقب في هذا المعنى عن الباقر (عليه السلام) ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة والرسل، وأما الأمة فغير جايز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل[lv].

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى: لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى إن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلا! لم يعن الله مثل هذا من خلقة، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم، الأمة التي وصفت كنتم خير أمة أخرجت للناس وهم الأمة الوسطى وهم خير أمة أخرجت للناس[lvi].

تبين مما تقدم أن الأمة المؤهلة لتحمل الشهادة والأدلّاء بها على الناس يوم القيامة هي ثلة عالمة بنوايا الأعمال وانها صادقة لا تنطق الا بالحق، ولا تبدو الأمة التي تضم الفراعنة والجبابرة والعتاة المردة مؤهلة بأجمعها للشهادة على الأعمال في يوم الحساب الذي تبلى فيه السرائر وتنكشف فيه حقيقة الأعمال.

الخاتمة

توصّل البحث عقب هذه الجولة في تقصي قضية الأمة الشاهدة على الأعمال في يوم القيامة من من خلال عرض وتحليل طائفة من الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة الشهادة والأمة وأقوال مفسري الفريقين فيها، الى جملة من النتائج أبرزها ما يأتي:

1- ثمة طائفة من الآيات القرآنية المباركة تعرضت لمفردة الشهادة، التي تفيد الشهادة على أعمال الناس في يوم القيامة كما ذهب الى ذلك أغلب المفسرين، وعليه أيضا ظاهر القرآن

2- إن الأمة الوسط هي ذات الأمة الخيرة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر الموسومة بالعدل الذي يفيد العصمة عن الخطأ والزلل، الأمة التي وجبت لها دعوة ابراهيم، ولا يراد بها جميع أفرادها وفيهم الصالح والطالح، والدليل على ذلك ما ورد في بعض الروايات التفسيرية أن في الأمة من لا تجوز شهادته في الدنيا على

صاع من تمر، فكيف يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية.

3- إن الشهادة تعني مطلق الحضور المتعدد المصاديق، ووردت بحسب مفسري الفريقين بمعنى الشهادة على الأعمال يوم القيامة، والذي يفيد الحضور المعنوي الذي يمثل النبي الأكرم ــ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته (عليهم السلام) ــ مثاله الأكمل، فهم الميزان الذي يوزن به حال الناس والمرجع الذي يرجعون إليه.

4- ان من خصائص الشهيد يجب أن يستوي لديه الغيب والحضور، والخفيّ والظاهر، والقريب والبعيد، والظاهر والباطن ليمكنه تحمّل الشهادة وأداءها في المرحلة اللاحقة، والمفروغ منه ان هذه الكرامة ليست تنالها ـ بحسب المفسرين ــ جميع الأمة، إذ هي ليست إلّا كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منها.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

1- إبراهيم حسين الشاذلي (سيد قطب): في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط7، 2000.

2- إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998.

3- أبو علي الفضل الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط1، 2005.

4- حسين علي مظاهري: جهاد النفس، تعريب خليل عصامي، مكتب الاعلام الاسلامي، قم، ط1، 2001.

5- كمال الحيدري: عصمة الانبياء في القرآن، قم، مكتب الاعلام الاسلامي، ط1، 2002.

6- عبدالله بن عبدالله بن أحمد الحاكم الحسكاني: شواهد التنزيل، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط1، 2007.

7- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، بيروتن دار الكتب العلمية، ط1، 1994.

8- أبوعبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط1، 1987.

9- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تاويل آي القرآن، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1980.

10- محمد جواد مغنية: تفسير الكاشف، بيروت، دار الانوار، ط2، 2006.

11- محمد الريشهري: ميزان الحكمة، دار الحديث، قم، ط1، 2005، ص31، ط2، 1991.

12- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تحقيق: أياد باقر سلمان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2006.

13- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1، 1987.

14- محمد علي الشنقيطي: منازل السائرين / قسم المعاملات، الباب السابع والعشرين، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007.

15- أبو جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب: مناقب ال ابي طالب، ج4ص32، تحقيق لجنة من اساتذة النجف الاشرف، 1956.

16- محمد بن محمد رضا المشهدي: كنز الدقائق وبحر الغرائب، طهران، وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، ط1، 2002.

17- محمد محسن الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، طهران، منشورات مكتبة الصدر، ط3، 2000.

18- محمد محسن الفيض الكاشاني: علم اليقين في أصول الدين، تحقيق: محسن بيدار فر، انتشارا بيدار، ط1، 1480هـ.

19- محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، قم، مؤسسة البعثة، ط1، 2005.

20- محمد بن يعقوب الكليني: اصول الكافي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2006.

21- هاشم البحراني: البرهان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط1، 2005.

22- نخبة من المفسرين: التفسير الميسر، الرياض، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، ط2، 2009.

(i) سورة هود: 8.
(ii) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص179.
(iii) سورة الزخرف: 22.
(iv) نخبة من المفسرين: التفسير الميسر، ص123.
(v) سورة الاعراف: 164.
(vi) سورة القصص: 89.
(vii) اسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج2، ص34.
(viii) سورة النحل: 93.
(ix) ابراهيم حسين الشاذلي (سيد قطب): في ظلال القرآن، ج1، ص82.
(x) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، ج1، ص232.
(xi) سورة النحل: 120.

[xii] ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص38.
[xiii] أبوعبدالله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص56.
[xiv] أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ص243.
[xv] القرطبي: المصدر السابق، ج5، ص34.
[xvi] سورة ال عمران: 104.
[xvii] الحيدري: عصمة الانبياء في القران الكريم، ص78.
[xviii] سورة ال عمران: 124.
[xix] محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج3، ص232.
[xx] البقرة: 128.
[xxi] الطباطبائي: المصدر السابق، ج12، ص32.
[xxii] سورة البقرة: 133.
[xxiii] محمد الريشهري: ميزان الحكمة، ص78.
[xxiv] الطباطبائي: المصدر السابق، ج4، ص65.
[xxv] سورة البقرة: 133.
[xxvi] أبي علي الفضل الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج1، ص34.
[xxvii] سورة البقرة: 182.
[xxviii] سورة البقرة: 185.
[xxix] سورة البقرة: 243.
[xxx] سورة النساء: 41.
[xxxi] سورة النحل: 84.
[xxxii] سورة الزمر: 69.
[xxxiii] سورة الاعراف: 6.
[xxxiv] سورة المائدة: 117.
[xxxv] سورة النساء: 159.
[xxxvi] الطباطبائي: تفسير الميزان، ج3، ص23.

[xxxvii] حسين علي مظاهري: جهاد النفس، ص15.
[xxxviii] سورة البقرة: 142.
[xxxix] سورة النساء: 159.
[xl] سورة النساء: 69.
[xli] سورة يونس: 35.
[xlii] سورة المؤمن: 34.
[xliii] سورة النحل: 89.
[xliv] أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص80.
[xlv] الميزان، المصدر السابق، ج3، ص45.
[xlvi] سورة المائدة: 117.
[xlvii] سورة الروم: 57.
[xlviii] الميزان، المصدر السابق، ج1، ص242.
[xlix] عبدالله بن عبدالله بن أحمد الحاكم الحسكاني: شواهد التنزيل، ج1ص92، محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج18، ص47.
[l] محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي ج1ص63، محمد محسن الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج1، ص197، محمد المشهدي: كنز الدقائق ج1، ص361، هاشم البحراني: البرهان في تفسير القران، ج1، ص176.
[li] الطباطبائي: تفسير الميزان، ج1ص267.
[lii] محمد محسن الفيض الكاشاني: علم اليقين في اصول الدين، ج2، ص544.
[liii] سورة الزخرف 86.
[liv] الميزان، المصدر السابق، ج12، ص46.
[lv] أبو جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب: مناقب ال ابي طالب، ج4، ص32.
[lvi] محمد بن يعقوب الكليني: اصول الكافي، ج12، ص245.